# (الهُويَّات القَاتِلَة)

## لأمين معلوف

أ. أحمد الكرساوي

## مقدمة:

انخرط العديد من المفكرين حول العالم في الجدل الدائر حول الهوية وذلك في ظروف وسياقات مختلفة، فبالنسبة للغرب بلغ النقاش حول الهوية ذروته بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، حيث أعادت تلك الأحداث نظرية صدام الحضارات التي وضعها صامويل هنتنغتون للواجهة، مما اضطره إلى وضع كتاب جديد عن الهوية في عام ٢٠٠٥م بعنوان (من نحن؟ تحديات الهوية القومية الأمريكية).

وفي بنغلاديش أصدر المفكر البنغالي أمارتيا صن كتابه (الهوية والعنف، وهم المصير الحتمي) في إطار الصراع على الهوية بين الهندوس والمسلمين بعد سلسلة من المحاضرات ألقاها عن الهوية بين نوفمبر ٢٠٠١م وأبريل ٢٠٠٢م بعنوان (مستقبل الهوية).

أما بالنسبة للعالم العربي فقد ساهمت جملة من الشروط التاريخية كسقوط الدولة العثمانية وتفككها، وظهور الفكرة القومية، واندلاع الحروب الأهلية في عدد من البلدان كلبنان والجزائر وغيرها في اهتمام عدد من المفكرين بأسئلة الهوية، كان من أبرزهم الروائي والمفكر اللبناني أمين معلوف في كتابه (الهويات القاتلة) الذي اشتغل فيه ببحث موضوع الهوية وعلاقتها بالعنف انطلاقا من تجربته الشخصية، حيث ينتمي معلوف إلى طائفة الملكيين الكاثوليك، وكان شاهدا على الحرب الأهلية في لبنان التي كانت سببا في هجرته إلى فرنسا في عام ١٩٧٥م ومازال مستقرا فيها إلى اليوم.

وفي هذه الورقة أستعرض أهم الأفكار التي طرحها معلوف في كتابه (الهويات القاتلة) الذي صدر باللغة الفرنسية عام ١٩٩٨م والمكون من أربعة فصول مترابطة من ناحية المضمون ومن ناحية الإشكاليات التي تبحثها:

## الفصل الأول:

ففي الفصل الأول المعنون بـ (هويتي انتماءاتي) يبدأ معلوف بتمهيدٍ يبين فيه أن مفهوم الهُوية أحد المفاهيم الغامضة الملتبسة التي لم يعد من المجدي إعادة تعريفها وتحديد مضمونها، كما يتطلب تعريفه مزيدا من الشجاعة والإقدام، مما جعله يصرف النظر عن تحديد معناه، على الرغم من أهمية تحديد المفاهيم خصوصا إذا كان المفهوم شائكا وملتبسا ومتداخلا مع عدد من الفروع المعرفية، وفي وقت يسعى فيه كل طرف لإعادة تفسير المفاهيم وتوظيفها لخدمة مصالحه «فكلما زاد المفهوم غموضا كلما أصبح عرضة للتطويع الانتهازي» (١).

بعد أن يصرف معلوف النظر عن بيان مفهوم الهوية يشرع في بيان أطروحته الرئيسية المتمثلة في أن الهوية ذات أبعاد وانتماءات متعددة، فكل فرد من أفراد المجتمع ذو هوية مركبة من الدين والعرق واللغة والوظيفة والطبقة وغيرها، على سبيل المثال يمكن أن يكون الفرد فرنسيا، ومن أصل لبناني، ومسيحيا، وروائيا في آن واحد كما هو الحال بالنسبة لمعلوف، وليس واحدٌ منها فقط هو ما يمنح الفرد هويته دون بقية الانتماءات.

ضمن هذا الإطار يدين معلوف الرؤية التي تختزل الهوية في بُعد واحد، باعتبارها أحد أكبر الأسباب التي قادت إلى التعصب والانزلاق نحو عقلية (نحن مقابل هم)، فتصنيف الناس على أساس الدين أو العرق أو اللغة فقط، والانغلاق داخل هذا البعد الأحادي للهوية يساهم في تقوية النزعة العدوانية لدى الأفراد، بعكس التصور التعددي الذي يربطه بعدد كبير من البشر، الأمر الذي من شأنه أن يعزز السلام والاستقرار والتعايش السلمي، ويضمن إقامة «علاقة مغايرة مع الآخرين، وكذلك مع العشيرة التي ننتمي إليها، ولا يعود الأمر يقتصر على نحن وهم، أي على جيشين متأهبين يستعدان للمواجهة القادمة والانتقام العتيد».

إن هذا الحل الذي يقدمه معلوف في نظري يمكن أيضا أن يؤدي إلى العنف كما هو الشأن في التصور الأحادي للهوية، وذلك في حال الفشل في إدارة الانتماءات المكونة للهوية والإخفاق في التوفيق بينها، كما يمكن أن تؤدي هذه التعددية إلى الازدواجية في الانتماء، وإلى صراع داخلي وفقدان للذات ومشكلات نفسية معقدة قد تقود إلى العنف في رد فعل على حالة الاضطراب النفسي.

ينتقل معلوف بعد ذلك إلى بيان طبيعة الهوية فيؤكد على أنها ذات طبيعة مرنة تتحول وتتطور بشكل مستمر، ويكتسب الفرد مجموع الانتماءات المكونة للهوية مع مرور الوقت وخطوة خطوة بعد أن يتقدم به الزمن،

فليست الهوية كيانا ثابتا لا يلحقه التغير، بل تتشكل شيئا فشيئا وفقا للظروف الاجتماعية والسياسية والتاريخية.

بالإضافة إلى أن هذه الانتماءات المكونة للهوية ليست على درجة واحدة من الأهمّية، بل هي ذات طابع نسبي من حيث المكانة والقيمة، فتقديم انتماء على آخر يمكن أن يتغير وفقا لسياقات وظروف معينة، يظهر هذا الطابع النسبي خصوصا حينما يتعرض واحد من هذه الانتماءات للخطر والتضييق والاضطهاد، ففي هذه الحالة يسعى الشخص المضطهد إلى إبراز هذا الانتماء والتوحد به، فيسيطر على هويته، «ويولد تضامنا لدى الأشخاص الذين يتقاسمونه، فيتجمعون ويتحركون ويشجع بعضهم بعضا، ويهاجمون الفريق الآخر، ويصبح تأكيد الهوية بالضرورة فعلا شجاعا وعملا تحرريا».

لكن من المنظور الإسلامي لا يوجد انتماء يسمو على الانتماء الديني، فهو الانتماء الأصيل والمهيمن على بقية الانتماءات، حتى في حال تعرض بقية الانتماءات للتجريح يظل الانتماء الديني هو الضابط لتصرفات الفرد والموجِّه لها، كما يدل عليه قوله تعالى ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (الحج:٧٨)، وهذا التأكيد على مركزية الانتماء الديني لا يعني تهميش أو إقصاء بقية الانتماءات، فالله تعالى جعل الناس متنوعين ومختلفين في أشكالهم وألوانهم وألسنتهم فأكد ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات:١٣)، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ (الروم:٢٢).

في ختام هذا الفصل ظهر تأثر معلوف بالنزعة التقدمية المتجذرة بعمق في الفكر الغربي والتي تعتبر أحد الأساطير الثلاثة المؤسسة لفكر الحداثة(٢) وذلك حين وصف الحجاب الإسلامي بالسلوك الرجعي الماضوي الذي لا ينبغي أن يكون لها وجود في العالم الحديث، بناء على أن التاريخ يسير في خط تصاعدي، وأن حال البشرية في المستقبل سيكون أفضل مما هو عليه في الماضي والحاضر، وأن كل من يفضل الماضي على الحاضر فهو إنسان ماضوي رجعي، وكل ما لا ينتمي إلى الحاضر فإن الزمن قد تجاوزه ولم يعد صالحا للبقاء، وهذه الفكرة وإن كانت رؤيةً للتاريخ إلا أنها امتدت لتشمل كافة العلوم والمعارف، وأصبحت تستعمل في نقد الأفكار والثقافات والأشخاص وسائر الظواهر البشرية. وقد تعرضت فكرة التقدم إلى طيف واسع من الانتقادات، من أهمها أنها فكرة متناقضة في

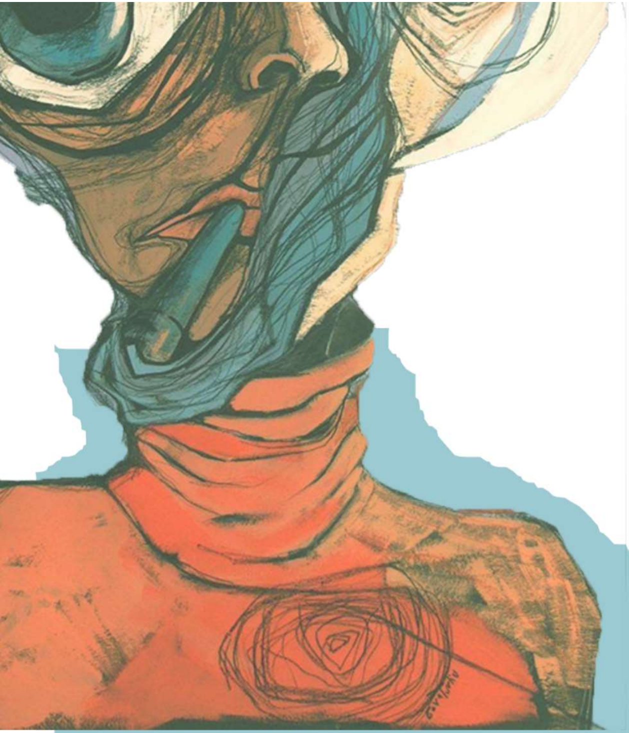

نفسها لأنها من جهة: هي رؤية تاريخية للعالم بحيث تستعمل التاريخ لتبرير نفسها، لكنها في الوقت نفسه تتنكر للتاريخ حين تمنح التاريخ تأويلا يخالف تأويلها، أي إن التاريخ الحديث شأنه شأن النظريات العرقية مصمم لتصنيف الماضي في تراتبيات جاعلا ماضيا ما يفوق غيره، ولجعل الحاضر يفوق كل ماض سابق، بل لجعل «المستقبل المجهول يفوق الحاضر»(٣)، كما كانت هذه الفكرة بحسب إدوارد سعيد مبررا للقوى الأوروبية في استعمارها لبلدان الشرق باعتبارها متخلفة تفتقر لمن يقودها إلى النهضة والتقدم واللحاق بركب الحضارة الأوروبية.
بالإضافة إلى تأثير نزعة التقدم على أمين معلوف في موقفه من الحجاب فإن هذا القول يتعارض مع الأطروحة الرئيسية للكتاب، لأنه يستبطن القولَ بتثبيت مبدأ الهوية الواحدة (الهوية الغربية) وإلغاء التنوع والتعدد الهوياتي الذي يطالب به معلوف في هذا الكتاب كحلٍّ لمشكلة العنف.

**الفصل الثاني:**
تتمحور الفكرة الرئيسية في هذا الفصل حول التأكيد على التأثير المتبادل بين المجتمعات والأديان، فكل منهما يؤثر في الآخر، خلافا لما اعتدنا عليه من النظر إلى هذه المسألة من جانب واحد وهو تأثير الدين في المجتمعات، وإذا تقرر أن المجتمع يصنع الدين ويؤثر فيه فإنه يمكن لكل دين أن يواكب الحداثة كما حصل للمسيحية في أوروبا، وبناء على هذا يرد معلوف على الفكرة الذائعة في البيئة الأوروبية والمتجذرة في العقل الغربي التي ترى أن الإسلام دين جامد غير قابل للتطور بخلاف المسيحية التي تحمل من المبادئ ما يجعلها مهيئة للتقدم ومواكبة الحداثة أكثر من باقي الديانات، فيقول معلوف أن السبب ليس في أن الدين الإسلامي لم

يكن قابلا للتحديث بل لأن المجتمع نفسه لم يؤثر في الدين حتى يواكب الحداثة وينسجم معها. وعندما تحمل الحداثة بصمة الآخر تسعى المجتمعات إلى تأكيد تمايزها واختلافها بالإعلاء من شأن هويتها الخاصة، على غرار ما يفعل الأفراد حين يتعرض أحد انتماءاتهم للخطر والتضييق، وتبرز هذه الظاهرة بحسب معلوف عند المسلمين خاصة إلا أنها ليست حكرا على ثقافة أو ديانة معينة.

وفي هذا السياق يتساءل معلوف عن سبب التعايش مع الآخر واحترام حرية التعبير في الغرب وانعدام ذلك في العالم الإسلامي الذي أصبح معقلا للعنف والتطرف الديني، غاضا الطرف عن ممارسات بلده الجديد فرنسا الذي يعتبره معلوف جزءا من هويته، وعن دورها الرئيس في صناعة العنف إما عن طريق استعمار بلدان العالم الثالث واستغلال ثرواتها لتعزيز اقتصادها الخاص -ومنها لبنان البلد الذي نشأ وترعرع فيه معلوف- أو عن طريق محاربتها للتعددية الثقافية داخلها، سواء بمعاملة المهاجرين من المغرب العربي خاصة باعتبارهم مختلفين عرقيا وبالتالي غير قابلين للاستيعاب بناء على تقرير كالفيه المقدم إلى المجلس الاقتصادي والاجتماعي عام ١٩٦٩م، فوجد المسلمون أنفسهم نتيجة لذلك مقيدين تقييدا مضاعفا، وأضفى عليهم المجتمع الفرنسي صبغة عرقية، وكان لهم عداء قوي إزاء التعبير عن الهوية الدينية(٤) أو بمحاربة مظاهر التدين لدى المسلمين -الذين أصبحوا مكونا أساسيا من مكونات المجتمع الفرنسي- مما يُعد انقلابا على دعاوى الحرية الفردية.

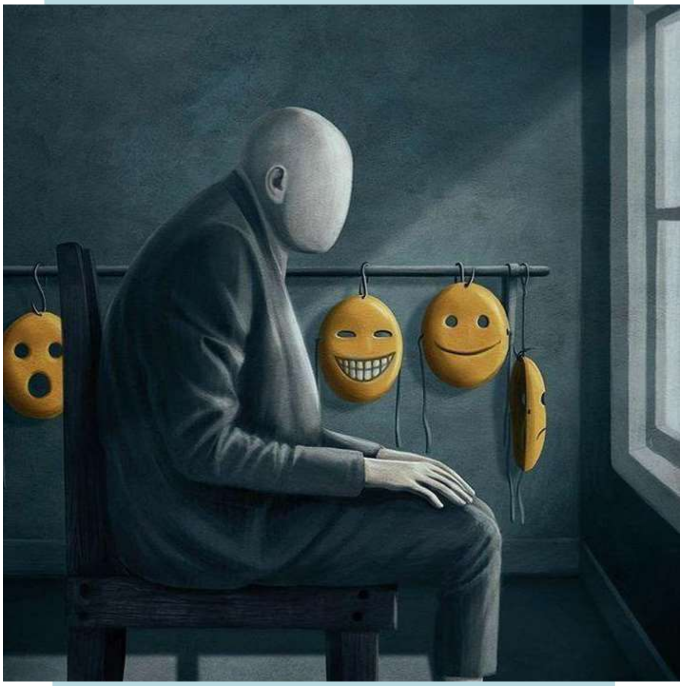

**الفصل الثالث:**

أما في الفصل الثالث فيذكر معلوف أنه في مراحل مختلفة من التاريخ يكون هناك تركيز أكبر على انتماء واحد من الانتماءات المكونة للهوية، وفي هذه المرحلة من التاريخ يميل الناس بحسب معلوف إلى إيلاء الانتماء الديني أهمية أكبر من بقية الانتماءات، ثم يتساءل عن سبب عودة الدين إلى الساحة الفكرية والاجتماعية، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب منها: انهيار الاتحاد السوفيتي بفكره الماركسي الذي أراد إقامةَ مجتمعٍ لا مكان فيه لأي معتقد ديني، «فقد أسفر فشلُ هذا المشروع سواء على الصعيدين الاقتصادي والسياسي أو على الصعيدين الأخلاقي والفكري عن رد الاعتبار إلى المعتقدات التي كانت الماركسية تريد رميها في مهملات التاريخ، لقد استطاع الدين بصفته ملاذا روحيا وانتمائيا من بولندا إلى أفغانستان أن يشكل نقطة التقاء بدهية لكل الذين كانوا يناهضون الشيوعية، ولذا فقد كانت هزيمة ماركس ولينين بمثابة انتقام للأديان بقدر ما كانت أقله نصرة للرأسمالية والليبرالية أو للغرب، غير أن هذا العامل لم يضطلع وحده بدور حاسم في صعود الظاهرة الدينية في خلال الربع الأخير من القرن العشرين».

يتمثل السبب الثاني في زيادة نسب البطالة والفقر التي لم يستطع العالم حتى الآن إيجاد حلول لها مما كان لها أكبر الأثر في تنامي الشعور الديني، «فكل الذين لم يولدوا وهم يملكون سيارة ليموزين مركونة أمام منزلهم، كل الذين يرغبون في تغيير النظام القائم، كل الذين يثورون على الفساد وتعسف النظام الحاكم والفروق الاجتماعية والبطالة وانسداد الأفق، كل الذين لا ينجحون في إيجاد موقع لهم في عالم سريع التحول ينجذبون إلى الحركة الإسلامية فيشبعون في إطارها على السواء حاجتهم إلى الهوية، وحاجتهم إلى الاندماج في مجموعة، وحاجتهم الروحية».

كانت العولمة أيضا من الأسباب التي عززت العودة إلى الدين، «فالعولمة المتسارعة تولد استجابة تتمثل في تعزيز الحاجة إلى تأكيد الهوية، وكذلك تعزيز الحاجة الروحية بسبب القلق الوجودي الذي يصاحب هذه التحولات المباغتة، والجدير ذكره أن الانتماء الديني وحده يقدم جوابا عن هاتين الحاجتين، أو يسعى أقله لتقديم هذا الجواب».

في نهاية الفصل يحلم معلوف بعالم يُفصل فيه بين السياسي والديني، ولا يكتفي بالمطالبة بهذا النوع من الفصل، بل يجب في نظره نبذ المكون الديني

عـن الهويـة، وهـذا تناقـض آخـر مـن تناقضـات معلوف لأنـه قـد أكـد سابقا أن الانتمـاء الديني مكـون أساسـي مـن مكونـات الهويـة وجـزء لا يتجـزأ منهـا، واعتـرف بدفاعـه عـن انتمائـه الدينـي وعـدم تـردده فـي الإقـرار بتأثيـر هـذا المكـون فـي مجـرى حياتـه، يقـول معلـوف: «لا أحلـم بعالـم لا مـكان فيـه للديـن، بـل بعالـم تنفصـل فيـه الحاجـة إلـى الروحانيـة عـن الحاجـة إلـى الانتمـاء، عالـم لـن يشـعر فيـه الإنسـان بالحاجـة إلـى الانخـراط فـي جمهـرة إخوانـه فـي الديـن مـع تمسـكه المحتمـل بمعتقـدات وعبـادات وقيـم أخلاقيـة مستوحاة من كتـاب مقـدس، عالـم لا يكـون فيـه الديـن لحمـة للمجموعـات الإثنيـة المتناحـرة، ولا يكفـي فصـل الديـن عـن الدولـة بـل يجـب كذلـك فصـل الدينـي عـن الانتمائـي، فـإذا مـا أردنـا تحديدا ألا يستمر هـذا الخلـط فـي تأجيـج التطـرف والإرهـاب والحـروب الإثنيـة يجـب العمـل علـى إشباع الحاجة إلـى تأكيـد الهويـة بصـورة أخـرى».

**الفصل الرابع:**

فـي الفصـل الرابـع والأخيـر يُشـبّه أميـن معلـوف الهويـة بالفهـد الـذي يمكـن لـه أن يقتـل ويفتـك إذا مـا تعـرض للاضطهـاد، ويقتـرح ثلاثـة حلـول لتدجيـن الهويـة وترويضهـا والحيلولـة دون انفلاتهـا، وهـي حلـولٌ يشـوبُ بعضهـا نـوع مـن الطوباويـة الحالمـة:

يتمثـل الحـل الأول فـي الدعـوة إلـى التنـوع اللغـوي وذلـك بـأن يسـتبدل كل فـرد العنصـر اللغوي بالعنصر الديني، وتعلم اللغات الأخرى حتـى تندمـج الحضـارات مـع بعضهـا البعـض دون أن تطغـى إحداهـا علـى الأخـرى مـع ضـرورة احترام اللغة الأم، وتأكيده على أهمية الترجمة فـي تعزيـز هـذا الجانـب، معتبـرا الاكتفـاء بلغـة واحدة متنافيا مـع روح العصـر، ويقتـرح أن يتعلـم كل فـرد ثـلاث لغـات، الأولـى هـي اللغـة التـي ينتمـي إليهـا، والثالثـة هـي اللغـة الانجليزيـة، والثانيـة هـي لغـة بيـن الاثنيـن يملـك المـرء حريـة اختيارهـا.

أمـا الحـل الثانـي فهـو مـا يسـميه بـ (التبادليـة) ويعنـي بهـا ضـرورة تبـادل الثقافـات وعـدم التمتـرس والتقوقـع داخـل ثقافـة واحـدة، مـع الإفـادة مـن التقـدم التكنولوجـي فـي عمليـة التبـادل.

وأخيـرا يقتـرح معلـوف أن تكـون الإنسـانية هـي الهويـة الرابطـة بيـن البشـر بـدلا عـن الديـن باعتبارهـا حصيلـة لكافـة انتماءاتنـا، فرغـم الاختـلاف والتبايـن فـي الثقافـات يمكـن أن يندمـج البشـر ضمـن هويـة واحـدة هـي الهويـة الإنسـانية، لأن كل يـوم يمـر تتقلـص اختلافاتنـا شيئا فشيئا، وهكـذا يعـود معلـوف مـرة أخـرى لينقـض مـا قـرره سـابقا مـن أهميـة التعدديـة والتنـوع بفـرض هويـة واحـدة يلتـزم بهـا الجميـع، بالإضافـة إلـى أن النزعـة الإنسـانية تعتقـد أن الخـلاص إنمـا يتـم بالقـوى البشـرية وحدهـا وهـو مبـدأ يتعـارض بشـدة مـع المسـيحية التـي يعتبرهـا معلـوف جـزءا مـن هويتـه، إن كانـت فـي المقـام الأول هـي الاعتقـاد بخـلاص الإنسـان بقـدرة اللّه وحـده وبالإيمـان(٤).

**خاتمة:**

رغـم أهميـة كتـاب أميـن معلـوف إلا أن موضـوع الهويـة مـازال بحاجـة إلـى مـن يبحـث فيـه ويحللـه بطريقـة أكثـر منهجيـة ممـا كُتـب، ولا يتحقـق ذلـك إلا عـن طريـق تحريـر مفهـوم الهويـة وبيـان الأطروحـات الغربيـة والعربيـة حـول علاقـة الهويـة بالعنـف، وبحـث مسـألة التعدديـة الدينيـة التـي هـي جـزء مـن القـول بتعدديـة الهويـة ومحاكمتهـا فـي ضـوء الشـريعة الإسـلامية، وغيرهـا مـن المسـائل المتعلقـة بالهويـة بعيـدا عـن التبسـيط المخـل.

**قائمة المصادر والمراجع:**


(١)جـاك دريـدا، مـا الـذي حـدثَ فـي حـدثِ ١١ سـبتمبر؟ ص٨٣-٨٤.

(٢) إدغار موران، هل نسير إلى الهاوية؟ ص٣٥.

(٣) وائـل حـلاق ،الشـريعة النظريـة والممارسـة والتحـولات ص٢٤-٢٥.

(٤) علـي راتانسـي، التعدديـة الثقافيـة مقدمـة قصيـرة جـدا، ص٣٩.

(٥) موسوعة لالاند الفلسفية ص ٥٦٩.